رســـالة

في علة تفضيل فاتحة الكتاب

وآية الكرسي وسورة الإخلاص

كتبه: بأس الفرد

بسم الله الرحمن الرحيم

أمـا بعـد حمـد الله والصـلاة عـلى نبيـه، فالقصـد مـن هـذه المقالـة ذكـر فائـدة مـن تفسـير سـورة الفاتحـة وآيـة الكـرسي وسـورة الإخـلاص، إذ كانـتْ أعظـمَ مـا حـوى كتـاب، وأجـلّ مـا حفـظ في صـدر، وكيـف، والـذي فيهـا مـن السِرّ والحكمـة لا تفـي بـه الصحـف ولا تحيـط بـه الأذهـان، وسـأذكر مـن تأويـل ذلـك مـا يسـعف بـه الزمـان، ممـا أقـدرني الله عليـه، وهـداني بحسـن لطفـه إليـه، وقـد تفكـرت في العلـة الجامعـة بـين هـذه الثـلاث دهـرا، حتّـى اجتمـع لي مـن ذلـك عـلى قـصر البـاع وقلـة العلـم مـا فيـه كفايـة وبـلاغ إن شـاء الله، فأيقنـت حينئـذ بـما **روي عـن النبـي** ﷺ، أن «هـذا القـرآن مأدبـة الله، فتعلمـوا مـن مأدبـة الله مـا اسـتطعتم، إن هـذا القـرآن هـو حبـل الله، وهـو النـور البـين، والشـفاء النافـع، عصمـة لمـن تمسـك بـه، ونجـاة لمـن تبعـه لا يعـوج فيقـوم، ولا يزيـغ فيسـتعتب، ولا تنقـضي عجائبـه، ولا يخلـق مـن كثـرة الـرد».

وكان ممـا روى أهـل الأخبـار عـن ابـن مسـعود رضي الله عنـه أنـه قـال: «مـن أراد علـم الأولـين والآخريـن فليثـور القـرآن، فـإن فيـه علـم الأولـين والآخريـن» ويـا لله مـا أجـدر هـذا الـكلام بالتفكـر، ومـا أخلقـه بالتأمّـل، ألا تـرى أنّ القـرآن قـد جمـع مـن الأحـكام والأخبـار والعلـوم والعـبر والقيـاس مـع حسـن السـبك وفصاحـة اللفـظ مـا لـو تجشـمت طلـب مثلـه في غـيره لم تجـده أبـدا، فأيـن لا أيـن مثـل السـبع المثـاني، وآيـة الكـرسيّ، وسـورة الإخـلاص عـلى مـا سـأصف

لـك مـن تأويلهـا، مـن معنـى بديـع، وسر رفيـع، ﴿وفاكهـة كثـيرة * لا مقطوعـة ولا ممنوعـة، لا جـرم **قـال الصـادق المصـدوق** ﷺ: « أيعجـز أحدكـم أن يقـرأ في ليلـة ثلـث القـرآن؟ قالـوا: وكيـف يقـرأ ثلـث القـرآن؟ قـال: قـل هـو الله أحـد تعـدل ثلـث القـرآن»، **وقـال**: «إن الله جـزأ القـرآن ثلاثـة أجـزاء، فجعـل قـل هـو الله أحـد جـزءا مـن أجـزاء القـرآن»، **وقـال**: «الحمـد لله أم القـرآن، وأم الكتـاب، والسـبع المثـاني»، روى الترمـذي في سـننه عـن الحميـدي عـن سـفيان بـن عيينـة **أنـه قـال في شرح قـول ابـن مسـعود**: «مـا خلـق الله مـن سـماء ولا أرض أعظـم مـن آيـة الكـرسي»، **قـال سـفيان**: «لأن آيـة الكـرسي هـو كلام الله، وكلام الله أعظـم مـن خلـق الله مـن السـماء والأرض».

وبعـد فـإن مـن أراد فهـم كلام الله حسـن بـه أن يصـل أولـه بآخـره، وباطنـه بظاهـره، **قـال مسـلم بـن يسـار البـصري**: «إذا حدثـت عـن الله فقـف حتـى تنظـر مـا قبلـه ومـا بعـده»، **وقـال الزركـشي**: «وفائـدة المناسـبة جعـل أجـزاء الـكلام بعضهـا آخـذا بأعنـاق بعـض، فيقـوى بذلـك الارتبـاط ويصـير التأليـف حالـه حـال البنـاء المحكـم المتلائـم الأجـزاء، وقـد قـل اعتنـاء المفسريـن بهـذا النـوع لدقتـه، وممـن أكثـر منـه **الإمـام فخـر الديـن الـرازي وقـال في تفسـيره**: «أكثـر لطائـف القـرآن مودعـة في الترتيبـات والروابـط».

وقـال بعـض الأئمـة: «مـن محاسـن الـكلام أن يرتبـط بعضـه ببعـض لئـلا يكـون منقطعـا»، وهـذا النـوع يهملـه بعـض المفسريـن أو كثـير منهـم وفوائـده غزيـرة، **قـال القـاضي أبـو بكـر بـن العـربي في سراج المريديـن**: «ارتبـاط آي القـرآن بعضهـا ببعـض حتـى تكـون كالكلمـة الواحـدة متسـقة المعـاني منتظمـة المبـاني علـم عظيـم

لم يتعرض لـه إلا عـالم واحـد عمـل فيـه سـورة البقـرة ثـم فتـح الله عـز وجـل لنـا فيـه فلـما لم نجـد لـه حملـة ورأينـا الخلـق بأوصـاف البطلـة ختمنـا عليـه وجعلنـاه بيننـا وبـين الله ورددنـاه إليـه».

وقـال الشـيخ أبـو الحسـن الشـهراباني: «أول مـن أظهـر ببغـداد علـم المناسـبة ولم نكـن سـمعناه مـن غـيره هـو الشـيخ الإمـام أبـو بكـر النيسـابوري وكان غزيـر العلـم في الشريعـة والأدب وكان يقـول عـلى الكـرسي إذا قـرئ عليـه الآيـة لم جعلـت هـذه الآيـة إلى جنـب هـذه؟ ومـا الحكمـة في جعـل هـذه السـورة إلى جنـب هـذه السـورة؟ وكان يـزري عـلى علـماء بغـداد لعـدم علمهـم بالمناسـبة».

وجملـة الأمـر أنـك لـن تعقـل عـن الله مـراده كامـلا حتـى تنظـر إلى الحكمـة مـن التقديـم والتأخـير، وتقـف مـن ذلـك عـلى السر العظيـم أو اليسـير، وهـذا بـاب جسـيم إذا ولجتـه أصابـك مـن طيـب ريحـه مـا يكشـف لـك الحكـم الجليلـة، والفقـر الدقيقـة، وإذا كان الأمـر هكـذا، فاعلـم أنّ الـسر الـذي فضلـت بـه الثـلاث والله أعلـم مـا حـوتْ مـن معنـى اسـتغناء رب الأربـاب وافتقـار كل مـن سـواه إليـه، إذ كان ذلـك أصـل المعـارف ومبـدأ العلـوم، وسـبب اختـلاف الأنـام في ربهـم، ومـا مـن شـبهة دخلـت عـلى قـوم إلا وهـي مـن هـذا البـاب، ألا تـرى أن المشركـين طـرّا نسـبوا إلى الله الافتقـار إلى مـن هـو دونـه مـن صاحبـة أو ولـد أو شريـك تعـالى وعـزّ، وأن الفلاسـفة عطّلـوه عـن صفاتـه لمـا ظنـوا ذلـك ينزهـه عـن الافتقـار إلى مـن سـواه، وأن الملاحـدة لمـا جهلـوا ماهـم عليـه مـن الفقـر جرهـم ذلـك إلى مـا تـراه، فهـذا واضـح بـيّن، **وإذْ قـد ثَبـت وظهـر، فلنبتـدئ في بيـان مـا قصدنـا بيانـه، فأقـول: أمـا قولـه سـبحانه:** «الحمـد لله»، فثنـاء عـلى

المحمـود لجميـل صفاتـه وجزيـل أفعالـه، ثـم في كـون الفاتحـة أول الكتـاب، وكون الحمـد أول الفاتحـة سر دقيـق، وذلـك أنَّ مـن لم يهـده الله إلى قـراءة القـرآن فما لـه مـن هـاد، وهـو إن يكـن مسـلما فقـد مـن الله عليـه قبـل هـذا بالعقـل والتوحيـد، فـكأنّ القـارئ للقـرآن يبتدئـه بالحمـد عـلى هـذه النعـم الأولى[1] ثـم بالحمـد عـلى مـا سـيفيض عليـه مـن بـركات الكتـاب وعلومـه، **قـال ابـن القيـم في الصواعـق المرسـلة**: «ومـن محبتـه لحمـده والثنـاء عليـه أنـه جعـل حمـده مفتـاح كل كلام ذي بـال وخاتمـة كل أمـر، وافتتـح كتابـه بحمـده وختـم آخـره بحمـده، وافتتـح خلقـه بحمـده، وجعـل حمـده خاتمـة الفصـل بينهـم، **فقـال تعـالى**: «الحمـد لله فاطـر السـماوات والأرض»، **وقـال**: «الحمـد لله الـذي خلـق السـماوات والأرض وجعـل الظلـمات والنـور»، **وقـال**: «وقـضي بينهـم بالحـق وقيـل الحمـد لله رب العالمـين»، فافتتـح خلقـه وأمـره بحمـده، وختمهـما بحمـده».

وأمـا الله فالمعبـود بحـقّ، والـرب المـربي للخلـق، والعالمـون كل مـن حوتـه السـماوات والأرضـون، فكونـه مالـكا لهـم، يوجـب عليهـم التسـليم لأمـره ونهيـه ومـا قضـاه وقـدره، وكونـه المـربي لهـم يـدل عـلى حكمتـه العليـة، وعطفـه بالبريـة، ومناسـبة تقديـم الألوهيـة عـلى الربوبيـة مـع أن ذلـك خـلاف الأولى عـلى مـا قـد تتوهمـه العقـول التعليـل، فإنـه الواحـد لأنـه رب العالمـين وقاهرهـم، وقـد تعلـم أن للنـاس في الـشرك مذاهـب شـتى، وليـس أحـد منهـم إلا وهـو عابـد جـزءا مـن أجـزاء هـذا العـالم مـن ملائكـة وجـن وإنـس وغيرهـم، ولمـا كان الـرب قاهـر العالمـين، كان هـو الله الـذي لا إلـه إلا هـو، فافهمـه.

قال ابن القيم في الصواعق المرسلة: «لما كان الرب تعالى هو الأعلى ووجهه الأعلى وكلامه الأعلى وسمعه الأعلى وبصره وسائر صفاته عليا كان له المثل الأعلى وكان أحق به من كل ما سواه بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلى من الآخر وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده يستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير وهذا برهان قاطع من إثبات صفات الكمال على استحالة التمثيل والتشبيه فتأمله فإنه في غاية الظهور والقوة ونظير هذا القهر المطلق مع الوحدة فإنهما متلازمان فلا يكون القهار إلا واحدا إذ لو كان معه كفؤ له فإن لم يقهره لم يكن قهارا على الإطلاق وإن قهره لم يكن كفؤا وكان القهار واحدا».

أليس يقول الله عزوجل: «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون»، **ويقول**: «ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض»، وقد ظن من لا يعلم ولا يضع الأمور مواضعها أن الاتفاق ممكن، وليس كذلك، أرأيت هذا الأول لو كان مفتقرا إلى صاحبه من غير اختلاف، أكان يقدر على فعل شيء لا يريده، فإن كان ذلك كذلك رجع الكلام إلى ما وصف الله وذكر، إذ كان هذا قهرا لإرادة الآخر وعلوا عليه، وإن لا كان نقصا وافتقارا، فإن هذا لا يقدر حتى يمده صاحبه بالعون، ولا لصاحبه قدرة حتى يعينه هو، وعلى هذا، لم يكن ثمة فعل البتة، ولا قدرة أصلا، فهذا مما لا يذهب على من قصد الحق بنصح وإنصاف.

ثـم قـال سـبحانه بعـد: «مالـك يـوم الديـن»، وقـد تعلـم أن رب العالمـين مالـك ليـوم الديـن ضرورة، فـأي فائـدة تـرى لهـذا التكـرار، والـذي قالتـه طائفـة، أنـه جـل وعـزّ قـدم الرحمـة عـلى الجـبروت لمـا كان الترغيـب أبعـث للنفـوس، وأوقـع عـلى القلـوب، وعنـدي أن في هـذا لطيفـة أخـرى وهـي أنَّ التخصيـص تذكـير للعبـدِ بـما هـو آت لا محالـة، فناسـب **أن يقـال بعـد:** «إيـاك نعبـد وإيـاك نسـتعين»، ثـمّ هنـا سر آخـر، وذلـك أنـه قـدّم العبـادة عـلى الاسـتعانة نظـيرَ تقديـم الألوهيـة عـلى الربوبيـة في أول السـورة، **قـال ابـن تيمية-رحمـه الله-:** «ولهـذا بـدأ في السـورة بــ «إيـاك نعبد» فقـدم الاسـم ومـا يتعلـق بـه مـن العبـادة، لأن تلـك السـورة فاتحة الكتـاب وأم القـرآن، فقـدم فيهـا المقصـود الـذي هـو العلـة الغائيـة، فإنهـا علـة فاعليـة للعلـة الغائيـة»، ألا تـرى أنـه لا يقـرأ الفاتحـة إلا مـن هـدي للتوحيـد أو كان واجـدا في نفسـه حاجـة إلى ربّـه وعبادتـه بعـد إدراكـه ربوبيّتـه، فـكان تقديـم الافتقـار في هـذا المقـام أبلـغ، إذ كان جـل النـاس مؤمنـين بالـربّ الخالـق، وإنـما الشـأن في توحيـده جـل جلالـه، وقـد تعلـم أن مفـرده بالعبـادة يسـتعين بـه ولابـد، وقـد يسـتعين بـه مـن لا يفـرده، فهـذا لا يذهـب عـلى ذي نهيـة.

ثـم إنّ في قـول العابـد: «إيـاك نعبـد»، تصديقـا بالحركـة لذلـك الحمـد الذي سـبق، وفي قولـه: «وإيـاك نسـتعين» اعترافـا بالفقـر، وأنْ لا غنيـة للعبـد عـن الاسـتعانة بربـه، فهـو لا ينفـك عـن حمـده وشـكره والافتقـار إليـه، ثـم هنـا اعـتراف بنعـم الله عليـه، حتـى إن حالـه **كـما قـال الأول:**

إذا كان شكري نعمة الله نعمة

علي له في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله

وإن طالت الأيام واتصل العمر

قال الشافعي في صدر كتاب الرسالة: «الحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمةٍ من نعمه إلا بنعمةٍ منه، توجب على مُؤَدِّي ماضي نعمه بأدائها، نعمة حادثة يجب عليه شكره بها»، فالحنيف دائب في الشكر والحمد لا يفتر البتة، ولا يمل أبدا، ألا ترى أنه يحمد ربه على النعمة، ثم يبدو له أن ذلك الحمد نعمة تستوجب الحمد، ثم إذا أمعن النظر بدا له أن في اهتدائه للاعتراف بنعمة الحمد، نعمة أخرى تستوجب الحمد وهكذا، ولما كان ذلك كذلك، **كان قوله بعد:** «إهدنا الصراط المستقيم» زيادة في الافتقار كما ترى، **قال سهل التستري:** «أي على ما كلفتنا بما هو لك، وإليك المشيئة والإرادة فيه، والعلم والإخلاص لك، ولن نقدر على ذلك إلاّ بالمعونة والتسديد لنا منك، إذ لا حول لنا ولا قوة إلاّ من عندك. فقيل له: أليس قد هدانا الله إلى الصراط المستقيم؟ قال: بلى، ولكن طلب الزيادة منه **كما قال:** ﴿ولدينا مزيد﴾، فكان معنى قوله: «اهدنا»: أمددنا منك بالمعونة والتمكين. وقال مرة أخرى: «اهدنا» معناه أرشدنا إلى دين الإسلام الذي هو الطريق إليك بمعونة منك، وهي البصيرة، فإنا لا نهتدي إلا بك، **كما قال:** ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾، أي يرشدني قصد الطريق إليه».

فهـذا مـا في سـورة الفاتحـة مـن الحكـم، وأمـا القـول في تأويـل آيـة الكـرسيّ، فـسر عظيـم، وفضـل عميـم، وبحـر لا يـدرك قعـره، ولا يضبـط غـوره، وليسَ في الـكلام أبلـغ ولا أفصـح ولا أدلّ عـلى افتقـارِ كل شيء إلى الـرب منهـا، ألا تـرى إلى **قولـه جـل جلالـه**: «الله لا إلـه إلا هـو الحـي القيـوم»، فهـذا عـلى مـا قدمـت لـك القـول فيـه مـن تقديـم الألوهيّـة عـلى الربوبيـة، ثـم هنـا شروع في ذكـر افتقـار كل شيء إلى الـربّ العـلي، وهـو **قولـه**: «الحـي القيـوم لا تأخـذه سـنة ولا نـوم»، أمـا الحـي فهـو كامـل الحيـاة، وأمـا القيـوم فأبلـغ مـا وصـف بـه رب الأربـاب، لا جرمَ كانـت عصابـة مـن النـاس تـراه اسـم الله الأعظـم، وذاك أنّـه وصـف لـه بالقيـام بنفسـه مـن غـير مـا حاجـة إلى غـيره، وقيـام الخلـق طـرا بـه، فهـو الغنـي عـن كلّ شيء، والـكل فقـير إليـه أبـد الدهـر، وزادَ هـذا المعنـى بيانـا **بقولـه عزوجـلّ**: «لا تأخـذه سـنة ولا نـوم»، أي لا تأخـذه السـنة بلـه النـوم، إذ كانـت السـنة مقدمـة النعـاس، قـال زهـير:

لا سنة في طوال الليل تأخذه .. ولا ينام ولا في أمره فند

وقال ابن الرقاع العاملي:

لولا الحياء وأن رأسي قد عسا .. فيه المشيب لزرت أم القاسم

وكأنها بين النساء أعارها .. عينيه أحور من جآذر جاسم

وسنان أقصده النعاس فرنقت .. في جفنه سنةٌ، وليس بنائم

فإن قال قائل: ما وجه ذكر النوم بعد السنة وقد تعلم أنها تقتضيه. قيل له: ذلك والله أعلم على المبالغة، وهو بعد تأكيد لما مضى ذكره حتى لا يتوهم قليل عقل أنَّ رب الأرباب يفتقر أو يقهر جل جلاله، على أن في تقديم السنة من البلاغة الأمد الأقصى، والقدح المعلى، فإنها جزء والنوم كلّ، وهي مقدمته وبعضه، وهو جميع ذلك ونهايته، فكأن المعنى: لا تأخذه مقدمات الافتقار ولا نهاياته، فهل شيء أبلغ في النظر من هذه الآية، ألا ترى أن الاستغناء أصل كل الصفات، وأنّه الحجة في تفرده بالألوهية والربوبية، ولماذا كان الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، حتى إنه أقوى دليل على المشركين كافة، بل هو أول البديهيات، ولولا افتقار السبب إلى مسببه ما تمّت حجة ولا حصل استدلال في شرع ولا طبيعة ولا منطق ولا حساب.

قال ابن تيمية: «كما أن غنى الرب من لوازم ذاته، ففقر الممكنات من لوازم ذاتها»، **وقال**: «كون الشيء حادثا بعد أن لم يكن دليل على أنه مفتقر إلى محدث يحدثه، وكونه ممكنا لا يترجح وجوده على عدمه إلا بمرجح تام، دليل على أنه مفتقر إلى واجب يبدعه، وكونه ممكنا محدثا دليلان لأن كلا منهما دليل على افتقاره، وهذه الصفات وغير ذلك من صفاته: مثل كونه محدثا، وكونه، فقيرا، وكونه مخلوقا، ونحو ذلك تدل على احتياجه إلى خالقه، فأدلة احتياجه إلى خالقه كثيرة، وهو محتاج إليه لذاته لا لسبب آخر، وحينئذ فيمكن أن يقال: وجوده دليل على افتقاره إلى خالقه وعدمه السابق دليل على افتقاره إلى الخالق وكونه موجودا بعدم العدم دليل على افتقاره إلى الخالق».

واعتبر بجنس الحيوان فإنه مفتقر إلى الهواء والسماوات وما فيهن، ولمن يكمله من بني جنسه، وللولد والوالد، ولتمام أعضائه، ولما يتم به ذلك من طعام وماء ودواء ونوم وسعي، فشأنه كله في افتقار، ومهما حاولَ الاستغناء لم يقدر، وأنّى والخلق مملوك والرب مالك، حتى إنه لو عاش الدهر لم يستحل فقره إلى غنى، وهو بعد مفتقر إلى العلم أبدا، ألا ترى إلى شأن نبي الله موسى مع الخضر عليهما السلام، **قال النبي** ﷺ: «بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال له هل تعلم أحدا أعلم منك؟ فقال موسى: لا، فأوحى الله إلى موسى بل عبدنا الخضر فسأل موسى السبيل إلى لقيه»، **حتى قال**: «وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، **فقال له الخضر**: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر».

قال ابن تيمية: «وأما الأسباب المخلوقة كالنار في الإحراق، والشمس في الإشراق، والطعام والشراب في الإشباع والإرواء، فجميع هذه الأمور سبب لا يكون الحادث به وحده، بل لا بد أن ينضم إليه سبب آخر، ومع هذا فلهما موانع تمنعهما عن الأثر، فكل سبب فهو موقوف على وجود الشروط وانتفاء الموانع».

فهذا متبين لا شك فيه، ثم إن الله جل جلاله لما كان قائما بنفسه، والكل مفتقر إليه، كان ذلك برهانا على تمام ملكه، فإن أحدا لا يقدر على الخروجِ من ملكوته مهما كدّ وأنّى سعى، وليس هذا جبرًا على ما توهمته المبتدعة، فإنه لا يجبرهم على اختيار، ولا يلزمهم بفعل، ولكنّ إرادتهم لا تغلب إرادته،

ومهما صنع ابن آدم فبالله صنع، ألا ترى أنه لا يفعل الشيء إلا كان دليلا على إذن الله به، وإرادته إرادة كونية، ولو لم يشأه سبحانه لم يكن، فعلى هذا، كان كل الخلق مجبرين على البقاء في ملكوت الله جل و عز، ولو أمكنهم الخروج منه لما تمّ قهره، وقد حاول هذا المرام قوم فما أغنوا، هيهات هيهات، أنّى لمن حقيقته الفقر أن يطلب الغنى بلا سبب، قد جفت الصحف ورفعت الأقلام، وإنما كان ذلك كذلك لأنه الحي القيوم والواحد القهار، وهذا معنى قول النظار: «واجب الوجود»، لأنه قهار ورب وواحد بالضرورة، ولو لم يكن كذلك لما كان هو الله فافهم، حتى إذا اعتل معتل وسأل سائل بجهل فقال: «هل يقدر الله على خلق شريك له، وهل يقدر على أن يسلب نفسه القدرة»، قيل له يا هذا قد سألت عما لا يكون، بل إن سؤالك يشهد العقل عند حكايته على إغفالك وجهلك، وكيف تظن القاهر يفقد قهره، والقادر يبطل قدرته، وهل هذا إلا كالسؤال عن تحصيل العدم في العدم، وعن خالق الله على ما توهمه الجهال -تعالى وعز-، وليت شعري، كيف يسبق الأول الذي ليس قبله شيء أحد، وكيف تحدّ قدرة الغني بحدّ. وهذا باب تعرض للكلام فيه من لا يحسنه، وما ضلت النصارى إلّا به، فإنهم يقولون: إماتة الإله نفسه جائزة، وإن لا كان نقصا في قدرته، وليس يتعجب أهل الإسلام من قولهم هذا، فإن من لم يجعل الله له نورا فما له نور.

وبعد فإن طائفة من الناس لما علمت أنه لا يخرج أحد عن ملك الله، ولا يكون في حكمه إلا ما يريد، وأن أحدا لا يفعل إلا بإذنه، وأن ما بالمسلمين من نعمة فمن الله، بل علمهم بهذا منة منه **كما قال ابن رواحة:**

والله لولا الله ما اهتدينا

ولا تصدقنا ولا صلينا

خرجت إلى اعتقاد الحلول والاتحاد، وجواب هذا في السورتين وآية الكرسي على ما وصفنا، فإنَّ الحلول والاتحاد افتقار، وليس هذا شأن رب الأرباب.

قال ابن تيمية في الجواب الصحيح: «وكل من قال بحلول الله في شيء من المخلوقات من النصارى وغيرهم، يلزمهم أن يكون مفتقرا إلى ما حل فيه، فإنه لا حقيقة للحلول إلا هذا، ولهذا كان ما حل بقلوب المؤمنين من الإيمان والهدى والنور والمعرفة مفتقرا إلى قلوب المؤمنين، ولا يقوم إلا بها، وجميع الصور الذهنية القائمة بالأذهان مفتقرة إلى الأذهان، لا تقوم إلا بها، والشعاع مفتقر إلى محله، لا يقوم إلا به، وهكذا سائر النظائر، وهؤلاء الذين شابهوا النصارى وزادوا عليهم من الكفر بقولهم: إن وجود الخالق وجود كل مخلوق، وإنه قائم بأعيان الممكنات يقولون: إنه مفتقر إلى الأعيان في وجوده، وهي مفتقرة إليه في ثباتها، فيجعلون الخالق محتاجا إلى كل مخلوق، والمخلوق محتاجا إلى الخالق، ويصرحون بذلك، كما يصرح بعض النصارى، بأن اللاهوت محتاج إلى الناسوت، والناسوت محتاج إلى اللاهوت، كالمثل الذي ضربه النصارى له، لما مثلوه بشعاع الشمس مع محله، فإن محل الشعاع مستغن عن الشعاع، والشعاع مفتقر إلى محله».

قال: «وهذا من الكفر الواضح، فإنه يظهر امتناعه بصريح العقل، وهذا لازم للنصارى، سواء قالوا بالاتحاد، أو بالحلول بلا اتحاد، وإن كانت فرقهم الثلاث يقولون بنوع من الاتحاد، فإنه مع الاتحاد كل من المتحدين لا بد له من الآخر، فهو محتاج إليه كما يمثلون به في الروح مع البدن، والنار مع الحديد، فإن الروح التي في البدن محتاجة إلى البدن، كما أن النار في الحديد محتاجة إلى الحديد، وكذلك الحلول، فإن كل حال محتاج إلى محلول فيه، وهو من الكفر الواضح، فإنه يظهر امتناعه بصريح العقل».

ثم إنه لا يخفى على ذي لب أنَّ غالب احتجاج الله على المشركين كان بتنزيه نفسه العلية عن الحاجة والفقر، وتذكيرهم بحال من يعبدون من دونه، **ألا ترى قوله سبحانه**: «ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون»، فإن فيه إثبات الفقر من وجهين، أما الأول فالجوع الذي هو سبب للطعام، وأما الثاني فعاقبة ذلك من الحدث، على أن كون المسيح مولودا افتقار إلى مريم عليها السلام، ثم في الحاجة إلى الولد فقر لا يخفى، واعلم أن لك **في قوله عزوجل**: «الحي القيوم» من العبر والحجج مالا يحصى عددا، وقد أضربت عن ذكر ذلك مخافة الإملال.

وإذ قد عرفت ما وصفت، فإن إدراك العبد فقره ورضاه بذلك غاية العبودية، كأنه يقول: اللهم قد سعيت وحرصت وعلوت ورجوت فلم أستطع نفاذا، ولا قدرت على خروج، فأنا فقير بالقهر، ضعيف بالجبر، ولأن أبوء بذلك عن اختيار، أولى أن أكابر مع اضطرار.

ثـم رجـع الـكلام إلى غرضنـا مـن التأويـل، **أمـا قولـه عزوجـل**: «لـه مـافي السـماوات ومـا في الأرض * مـن ذا الـذي يشـفع عنـده إلا بإذنـه»، فـكلام في إرادتـه الكونيـة ومشيئته، وأنـه لما كان القيـوم الغنـي الـذي أحكـم كل شيء كان تـصرف المخلـوق في ملكـه مـن غـير إذنـه ممتنعـا، وقـد تعلـم أنّ الإذن بالـشيء لـون، والرضـا بـه لـون آخـر، وإذا كان هـذا هكـذا، وكان فعـل الخلـق لازمـا لإذنـه الكـوني، ثبـت مـن بـاب أولى أن لا شـفاعة لأحـد إلا بإذنـه الشرعـي، ألا تـرى أنـه قـد يـأذن بالـشيء ولا يرضـاه سـبحانه لمخالفتـه عدلـه ورحمتـه، **قـال تعـالى**: «إن تكفـروا فـإن الله غنـي عنكـم ولا يـرضى لعبـاده الكفـر».

وأمـا قولـه: «يعلـم مـا بـين أيديهـم ومـا خلفهـم»، فزيـادة إثبـات لهـذا المعنـى المرتبـط بقيوميتـه، فـإن مـن لا يخفـى عليـه شيء البتـة لـن يحصـل في ملكـه إلا مـا أذن بـه، ولهـذا **قـال إشـارة إلى عظيـم علمـه جـل وعـز**: «ولا يحيطـون بـشيء مـن علمـه إلا بـما شـاء»، أي أنـه العـالم بـكل مـا كان وبـكل مـا هـو كائـن إذ كان الواحـد القيـوم، وليـس ثمـة دليـل أوضـح ولا أبـين عـلى فقـر الخلـق مـن هـذا، فإنهـم أبـدا في جهـل وحاجـة، ومهـما ظنـوا العلـم فقـد فاتهـم مـن المعلـوم بقـدر مـا عرفـوا، لا جـرم **قالـت الحكـماء**: «لا يـزال المـرء عالمـا مـا طلـب العلـم، فـإذا ظـن أنـه قـد علـم فقـد جهـل»، ألا تـرى أن معلومنـا اليـوم كان مجهـولا مـن قبـل، وأن مجهـول اليـوم معلـوم الغـد، ومـن بـان لـه هـذا المعنـى، لم يجـد بـدّا مـن التسـليم والاعـتراف بقصـور نظـره إذا رابـه شـكّ أو دخلتـه شـبهة في صفـات الله وحكمتـه، فـإن حكمـة الله ضروريـة، ولـو لم تكـن كذلـك لبطـل النظـر في العقـل، ولـو حصـل هـذا لفسـد الخلـق أجمعـون، وشـبيه بهـذا حـالَ المتكلمـين والفلاسـفة، فإنّهـم للجهـل عطّلـوا الله عـن صفاتـه، وقـد ظنـوا الاسـتغناء بالعقـل

علـما، وهـذا إغفـال منهـم، فـإنّ مـا توهمـوه عـلى الله تعـالى وصفاتـه مـن الافتقـار سـببه افتقارهـم إلى العلـم بالكيفيـة، فاعرفـه.

ثـم قـال بعـد: «ولا يـؤوده حفظهـما»، أي لا يثقـل عليـه حفـظ السـماوات والأرض، وقـد تعلـم أن مـن يـؤوده الـشيء يتعبـه، ومـن يتعبـه تعلـوه السـنة، ومـن تعلـوه السـنة يقهـره النـوم، ورب الأربـاب منـزّه عـن كل ذلـك، فهـذا معنـى يكثـر في تأويـل آيـة الكـرسي، وقـد أتيـت مـن ذكـره عـلى جملـة.

وأمـا الـكلام في سـورة الإخـلاص، فـلا يبعـد عـما تقـدم ذكـره، وذلـك أن تأويـل **قولـه جـل جلالـه:** «قـل هـو الله أحـد * الله الصمـد»، نظـير **قولـه:** «الحمـد لله رب العالمـين»، **وقولـه:** «الله لا إلـه إلا هـو الحـي القيـوم»، أي أنـه واحـد باسـتغنائه وافتقـار الـكل لـه، ألا تـرى أن الصمـد مـن لا جـوف لـه، **قـال ابـن عبـاس والأعمـش وغيرهمـا:** هـو الـذي لا يطعَـم، وبيـان ذلـك أنّ الـذي ليـس بصمـد مفتقـر ولابـد إلى الطعـام والولـد، وهـذان سـببهما الجـوع والحاجـة وإن لا كان ذلـك عبثـا، والـرب العـلي منـزه عـن كليهـما، **يبينـه قولـه بعـد:** «لم يلـد ولم يولـد»، أي أنـه لصمديتـه لا حاجـة لـه إلى ولـد ولا إلى صاحبـة، وهـو قولـه في آخـر السـورة: «ولم يكـن لـه كفـؤا أحـد».

قـال ابـن رجـب مختـصرا كلامـا لابـن تيميـة في تفسـير سـورة الإخـلاص: «وتوجيه ذلك: الـولادة والتوليـد، إِنَّـمَا يكـون مـن أصلـين، ومـا كان عينًـا قائـمًا بنفسـه مـن المتولـدات، فـلا بـد لـه مـن مـادة يخـرج منهـا، ومـا كان عرضًـا قائـمًا بغـيره، فـلا بـد لـه مـن محـل يقـوم بـه، فـالأول نفـاه بقولـه أحـد؛ فـإن الأحـد هـو الَّـذِي لا كـفء لـه ولا نظـير، فيمتنـع أن يكـون لـه صاحبـة.

والتولد إنما يكون بين شيئين، وكونه تعالى أحدا، ليس أحد كفوا له يستلزم أنه لم يلد ولم يولد؛ لأن الوالد والولد متماثلان متكافئان، وهو تعالى أحد لا كفء له، وأيضا فالتولد يحتاج إلى زوجة، وهي مكافئة لزوجها من وجه، وذلك أيضا ممتنع، **ولهذا قال تعالى**: «أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة»، وقد فسر مجاهد الكفء ها هنا بالصاحبة.

وأما الثاني: وهو انفصال المادة فنفاه سبحانه بأنه الصمد، وهو المتولد من أصلين، ربما يتكون من جزئين ينفصلان من الأصلين، كتولد الحيوان من أبيه وأمه بالمني الَّذِي ينفصل منهما، وكالنار المتولدة من بين الزندين، سواء كانا خشبين أو حجرين أو حجرًا وحديدًا، وهو سبحانه صمد، لا يخرج منه شيء منفصل عنه.

والحيوان نوعان: متوالد وهو ما ولده من جنسه، وهو الإنسان وما يخلق من أبوين من البهائم والطير وغيرهما، ومتولد: وهو ما يخلق من غير جنسه وإنما يتولد من أصلين أيضاً كما خلق آدم من تراب وماء، وإلا فالتراب المحض الذي لم يختلط به ماء لا يخلق منه شيء لا حيوان ولا نبات، والنبات جميعه إِنَّمَا يتولد من أصلين أيضًا.

والمسيح -عليه السلام- خلق من مريم ونفخة جبريل، وهي حملت به كما تحمل النساء وولدته، فلهذا يقال له: ابن مريم، بخلاف حواء، فإنها خُلقت من ضلع آدم فلا يقال إنه أبوها، ولا هي ولده. وكذلك سائر المتولدات من غيرهما، كما أن آدم لا يقال إنه ولد التراب ولا الطين، والمتولد من جنسه أكمل من المتولد من غير جنسه، ولهذا كان خلق آدم أعجب من

خلق أولاده، فَإِذَا نزه الرب عن المادة العلق، وهي التولد من النظير، فتنزه به عن تولده من غير نظير أولى، كما أن تنزيهه عن الكفء تنزيه له عن أن يكون غيره أفضل منه بطريق الأولى.

فتبين أن ما يقال إِنَّه متولد من غيره من الأعيان القائمة بنفسها، لا يكون إلا من مادة تخرج من ذلك الوالد، ولا تكون إلا من أصلين، والرب تعالى صمد، فيمتنع أن يخرج منه شيء، وهو سبحانه لم يكن له صاحبة، فيمتنع أن يكون له ولد»

وشيء آخر يدل على الافتقار أيضا، **وهو قول ابن تيمية في النبوات:** «والمشهود المعلوم للناس إنما هو إحداثه تعالى لما يحدثه من غيره، لا إحداثا من غير مادة، **ولهذا قال تعالى:** «وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا»، ولم يقل خلقتك لا من شيء، **وقال تعالى:** «والله خلق كل دابة من ماء»، ولم يقل خلق كل دابة لا من شيء، **وقال تعالى:** «وجعلنا من الماء كل شيء حي»، وهذه هي القدرة التي تبهر العقول، وهي أن يقلب حقائق الموجودات فيحيل الأول ويفنيه ويلاشيه، ويحدث شيئا آخر؛ **كما قال:** «فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي»، ويخرج الشجرة الحية، والسنبلة الحية، من النواة والحبة الميتة، ويخرج النواة الميتة، والحبة الميتة، من الشجرة والسنبلة الحية؛ كما يخرج الإنسان الحي من النطفة الميتة، والنطفة الميتة من الإنسان الحي.

وخاصية الخلق إنما هي بقلب جنس إلى جنس، وهذا لا يقدر عليه إلا الله؛ **كما قال تعالى**: «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز»، ولا ريب أنّ النخلة ما هي من جنس النواة، ولا السنبلة من جنس الحبّة، ولا الإنسان من جنس المني، ولا المني من جنس الإنسان. وهو يخرج هذا من هذا، وهذا من هذا، فيخرج كلّ جنسٍ من جنسٍ آخر بعيدٍ عن مماثلته، و «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه» وهو سبحانه إذا جعل الأبيض أسود، أعدم ذلك البياض، وجعل موضعه السواد، لا أنّ الأجسام تعدم تلك المادة فتحيلها وتلاشيها وتجعل منها هذا المخلوق الجديد، ويخلق الضدّ من ضدّه؛ كما جعل من الشجر الأخضر ناراً، فإذا حك الأخضر بالأخضر، سخن ما يسخنه بالحركة، حتى ينقلب نفس الأخضر فيصير ناراً.

وخلق الشيء من غير جنسه أبلغ في قدرة القادر الخالق سبحانه وتعالى؛ كما وصف نفسه بذلك **في قوله**: «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب»، **ولهذا قال للملائكة**: «إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين»، **وقال**: «ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون»، ولهذا امتنع اللعين كما

قال تعالى: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا»، **وقال**: «لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون».

وأيضا، فكون الشيء مخلوقا من مادة وعنصر، أبلغ في العبودية من كونه خلق لا من شيء، وأبعد عن مشابهة الربوبية، فإن الرب هو أحد، صمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد؛ فليس له أصل وجد منه، ولا فرع يحصل عنه، فإذا كان المخلوق له أصل وجد منه، كان بمنزلة الولد له، وإذا خلق له شيء آخر، كان بمنزلة الوالد، وإذا كان والدا ومولودا كان أبعد عن مشابهة الربوبية والصمدية؛ فإنه خرج من غيره، ويخرج منه غيره؛ لا سيما إذا كانت المادة التي خلق منها مهينة؛ **كما قال تعالى**: «ألم نخلقكم من ماء مهين»، **وقال تعالى** «فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر»، وكذلك إذا خلق في محل مظلم وضيق؛ كما خلق الإنسان في ظلمات ثلاث، كان أبلغ في قدرة القادر، وأدل على عبودية الإنسان، وذله لربه، وحاجته إليه.

ولهذا لما خلق المسيح من غير أب، وقعت به الشبهة لطائفة وقالوا: إنه ابن الله، مع أنه لم يخلق إلا من مادة أمه، ومن الروح التي نفخ فيها؛ **كما قال تعالى**: «ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا»، **وقال تعالى أيضا**: «فتمثل لها بشرا سويا قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا»؛ فما خلق من

غير مادة يكون كالأب له، قد يظن فيه أنه ابن الله، وأن الله خلقه من ذاته، فلهذا كانت الأنبياء مخلوقة من مادة لها أصول، ومنها فروع، لها والد ومولود. والأحد الصمد: لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وحدوث الشيء لا من مادة، قد يُشبه حدوثه من غير رب خالق، وقد يُظنّ أنّه حَدَثَ من ذات الرب؛ كما قيل مثل ذلك في المسيح، والملائكة أنّها بنات الله، لمّا لم يكن لها أب، مع أنّها مخلوقة من مادّة؛ كما ثبت في الصحيح؛ **صحيح مسلم عن عائشة: أنّ النبيّ ﷺ قال**: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم ممّا وُصف لكم»، ولمّا ظنّ طائفة أنّها لم تُخلق من مادة، ظنّوا أنّها قديمة أزلية».

وبعد فقد ترى أنّ مدار الأمر كله على استغناء الله وافتقار كل من سواه، ولله في كلامه عجائب لا تنقضي قد وقفنا منها على جملة، وإذ قد عرفتها، فليس يخفى عليك أنه أطلقَ هذا المعنى في سورة الفاتحة لَّما كانت للقرآن مفتاحا، ثم قيده بالنوم والسنة وما يوجبهما في آية الكرسي لما كان القصد فيها ذكر حفظه السماوات والأرض وما بينهما، ثم لما كان الإخلاص نقيض كل شرك، ختم بذكر الصمدية التي تنفي عنه الحاجة إلى الولد والصاحبة، فهذه ثلاث مقامات لنفي الفقر عنه، ولكلّ مقام مقال.

نجز والحمد لله وهو حسبنا ونعم الوكيل